الأستاذ: ميهوبي عثمان أدب مقارن السنة الثالثة لسانس

المحاضرة الأولى

مدخل إلى الأدب المقارن

تمهيد: ممّا لاشك فيه أنّ ظاهره تأثر الآداب فيما بينها ظاهره قديمة، ولعل من أقد مظاهر التأثير والتأثر تلك التي سجلها التاريخ وحفظها لنا، إذ تشير الكثير من الدراسات الأدبية أن الأدب اليوناني كان له بالغ التأثير في الأدب الروماني « **ففي عام 146ق.م انهزمت اليونان أمام روما، ولكنها ما لبثت أن جعلتها تابعة لها ثقافيا وأدبيا** » وقد أشار الكثير من مؤرخي الأدب والفكر إلى أن روما هي مدينة وحاضرة اليونان في شتى العلوم، وهو الأمر الذي نجده هوراس "8-85ق.م"إذ يقول« اتبعوا أمثلة الإغريق، واعكفوا على دراستها ليلا واعكفوا على دراستها نهارا» وهذه إشارة واعتراف أن الرومان تأثروا كثيرا بحضارة اليونان.

وفي هذا لإطار نشير إلى فكرة تبادل أدبنا العربي التأثير والتأثر مع العديد من الآداب الأخرى، خاصة تلك التي صاحبت موجة الفتوحات الإسلامية في المناطق التي تماس بها واحتك بالأدب الفارسي ،أو بعد الانتشار الهائل والواسع لحركة الترجمة في العصر الأموي، والعباسي من الآداب اليونانية والهندية، وكان لذلك كله بالغ الأثر في ازدهار بعض الاجناس الأدبية ونشأة بعضها، وحدوث تطور في التفكير والتعبير الأدبي، وقد امتد تأثير الادب العربي كذلك في أعقاب اتصال الاسلام بأوروبا « **وكان للعرب فضل توجيه الأنظار إلى قيمة النصوص اليونانية، بما قاموا به من ترجمات الفلاسفة اليونان وخاصة ،وخاصة أرسطو فحاول رجال النهضة الرجوع إلى تلك النصوص في لغاتها الأصلية** » ، هذا وقد كان لفتح العرب شبه الجزيرة الإيبيرية بالغ التأثير في الآداب الأوروبية، والأخذ منها في العديد من

المجالات الثقافية ، بالإضافة الى الاستعمار والبعثات العلمية واحياء حركة الترجمة في العصر الحديث فقد كانت ظاهره التأثير والتأثر بين الآداب موجوده، إلا ان اكتشافها والاعتراف بها لم يتم إلا مع بداية القرن 19 حوالي 1827م وذلك نظرا للظروف التاريخية التي كانت سائدة .

شهد القرن **18م** مجهودات الكثير من الشعراء والأدباء الغربيين الذين مهدوا الطريق لما يعرف بالدراسات المقارنة وهو الأمر الذي نجده عند كل من كورني وفولتير وغوته وغيرهم « **قد اتسعت آفاقهم في نقدهم الأدبي فعرضوا لآداب أمم أخرى بالنقد والموازنة ولن نقدهم لم يرم إلى شرح التأثير والتأثر من الوجه العلمي**» الذين مهدوا الطريق أمام الدراسات المقارنة.

وإذا كان القرن 18م قد مهّد الطريق فلسفيا وادبيا للدراسات المقارنة فان القرن 19م كان هو القرن الذي ولدت فيه فكرة **الأدب المقارن** كما تغيرت فيه الكثير من الأفكار التي كان مسلما بها مسبقا مع قيام الثورة الفرنسية أواخر القرن 18م.

حيث تغيرت النظم السياسية والاجتماعية والعقائدية مما أدّى الى تغير الأدب انتاجا ودراسة، وكان مفتاح هذا التغيير حلول فكرة الاختلاف والتغيّر بدل الاستقرار والتّوحّد وحلّ محلّ الاهتمام بالتاريخ الاهتمام بالإنسان، ولم تعد الطبقات العليا والمتوسطة التي حددها الأدب الكلاسيكي هي وحدها التي تلتمس عندها الحقيقة، وإنما أصبحت الطبقات الدنيا في المجتمع من صناعيين وفلاحين وحرفيين أيضا جانب من الحقيقة ولم تعد هذه الأخيرة محصورة على ما قاله الأدباء وحدهم، بل إنّ المعاصرين لهم ايضا جانب منها، وهي حقائق متعددة بتعدد الشعوب.

فليست مقصورة على الفكر الاغريقي واللاتيني او على ادب ابناء الجنوب ولكن يوحد قسط منها في كلّ شعب، وكلّ مناخ، وكلّ لغة، وبذلك لم تعد آداب الاغريق

واللاّتين هي النموذج الذي يجب محاكاته فقط، وعلى هذه الأسس العامة قامت الحركة الرومانتيكية في الادب ابداعا وتنظيرا، وكانت من خلال ذلك أداه تعين على اتصال الآداب فيما بينها، وتمهد للدراسات المقارنة، كما لعب بعض مفكّريها دورا لا يستهان به في ذلك، ومن بينهم: **مادا دي ستايل (M.de Staelle)** التي مكنت من اتّصالها القوي بالأدب الفرنسي والالماني بإقامتها في سويسرا التي استقاها من اللغتين من ان تعقد جسرا قويا بينهما، وان تؤكد على اهميه استفادة كل شعب من افكار الشعوب الاخرى قائلة: **(إنّ الأمم ينبغي ان تستهدي كلّ واحدة منها بالأخرى، ومن الخطأ الفاحش ان تبتعد أمّة عن مصدر ضوء يمكن أن تستعيره...)** وقانون الفكر يقتضي بان الذي يأخذ هو الذي تزداد ثروته..."

نشأة علم الأدب المقارن:

التسمية والنشأة:

1- التسمية: لقد وقع رواد الادب المقارن في مشكله التسمية، الفرنسيون استعملوا عبارة الأدب المقارن **Litterature comparée** بفتح الرّاء، دلالة على صيغة اسم مفعول، والانجليزيون فضّلوا: الأدب المقارن، الدّال على صيغة الفاعل **Litterature comparative** ، كما طرح له العديد من التّسميّات: **كالآداب الحديثة المقارنة، تاريخ الآداب المقارنة، علم مقارنة الآداب، علم الأدب المقارن** وهي التسمية التي استمرت فيما بعد.

- النشأة والتطور العالمي: ولد علم الادب المقارن في القانون **19م** وظهر هذا التعبير في فرنسا لأوّل مرّة عام **1828** على يد **جاك أمبير** الذي قدّم محاضراته في جامعتين: **مارسيليا وباريس**

- **<u>الأدب المقارن:</u>** وفي هذه الفترة كتب **أبيـل فيلمان** أول كتاب منهجي أدبي مقارن عن أدبي القرن **18** وقد درس فيه ادب هذا القرن في فرنسا وانجلترا وألمانيا، وكان يرمي من خلال مشروعه الكبير إلى الى تحديد ما اخذه العقل الفرنسي من الاخرين وما أمدّه به، كما شملت مقارنته المذاهب والتأثيرات الأدبية العالمية التي تدخل جميعها في صميم الأدب المقارن.

وبعد سنوات قلائل اتفق كل من **فيلاريت شاسل** مع **جان جاك أمبير** بدرج مادة الأدب المقارن في دروسه الجامعية، وفي كتاباته، ومع نهاية الاربعينيات صار الأدب المقارن أمر مفروضا، فنشطت فيه حركة التأليف على وتيرة ما كان يُنشر من مقالات ودراسات عالجت في معظمها مسائل تأثيرية بين الآداب الأوروبية.

وفي غضون الفترة الممتدة من **(1860-1885)** دخل الادب المقارن مرحلة الوقوف على رجليه في ثبات، فعلاوة على نشر المقالات والمؤلفات حول أهم التأثيرات المتبادلة بين الآداب الأوروبية، فقد فتحت دروس خاصة للأدب المقارن في الجامعات الفرنسية وغير الفرنسية، كما انتقل مركز الدراسات المقارنة تدريجيا من فرنسا الى سويسرا وإيطاليا، ففي سويسرا مثلا برز من الأساتذة **ألبير ريتشاد ومارك مونيه،** وفي الثلث الأخير من القرن 19م تأتّى للأدب المقارن ان يعرف تطورا باهرا على يد كبار المقارنين، ومنهم:

1- نكست والدّفع الجديد: عندما أرسخ جوزيف نيكست سنة 1893 ازدهار المقارنة الحقيقية ببضعه أعوام، فإنّه لم يكن مخطئا في ذلك، فقد ظهر اول مؤلف نظري في هذا العلم عام **1886** تحت عنوان **الأدب المقارن** للإنجليزي **هيشيسون بوسنتا** وطبع أول جزء منه تاريخ تأثير الحضارة الألمانية في الفرنسية **(1860-1890)** **توماس سويفل** والاثنان صادقا ظهور اول مجلة باللغة الألمانية حملت شعار الأدب

المقارن، ثم أعقبها يوميات الادب المقارن للمجري **هوغو يلينزل** وتوج الكل ظهور كبرى تيارات الادب المقارن الاوروبي في القرن **19م (1873-1890)** للدنماركي **جورج براندس،** وفي تلك الفترة الخصبة اخذ **فرديناند بروتيير** يوجه نشاطه الى ترويج الافكار السائدة للأدب المقارن، فكان النّاقد الوحيد الذي ساهم في تطوير الادب المقارن من الخارج بفضل جهوده المبذولة داخل المدرسة العليا او على صفحات مجلة **العالميين،** واخيرا جاء **نيكست** الذي عُدّ الاب بلا منازع للأدب المقارن الحديث وكان اول من اختص فيه على المستوى الاوروبي وصرف اهتمامه كله اليه، لا بدافع الاستجابة لذوق العصر وانما ثقة راسخة بمستقبل الادب المقارن العظيم، وعنده انّ الشّعوب كانت ولا زالت تتبادل النّظم والثقافات مثلما تتبادل السلع وخيارات مادية وان التيارات الأدبية تنهل من ادب الى اخر رغم انف الحواجز والعوائق الموضوعة، وفي عام **1895** ناقش **نيكست** رسالته المعنونة بـ **جان جاك روسو** ومصادر عالمية الادب، وتلتها مقالات واتجاهات اخرى جمعت ونشرت تحت عنوان: **دراسات في الأدب الاوروبي سنة 1898م**

<u>بيبليوغرافيا (الفهرس) العمل البيبليوغرافي:</u>

<u>بيتز والفهرسة:</u>

لقد كان بيتز يعتقد ان تطوير دراسات المقارنة مرهون بعمل اساسي لابد له من القيام به، وهو وضع بيبليوغرافي منهجية وشاملة لكل ما كتب حول الادب المقارن من مقالات ومؤلفات معروفة او مجهولة في سائر اللّغات والبلدان وتمكن بيتز بعد مجهود جبّار من تأليف كتاب ثمين سمّاه: " **الأدب المقارن، محاولة فهرسة** " طبع عام **1897م** ، وأحسن بها من محاولة، حملت في نشرتها الاولى ألفي عنوان واكثر

من ذلك في النشرات اللاحقة، والى جانب كتابه: **دراسات في الأدب المقارن 1902م** فان فهرسته عدت منذ ظهورها العدة الأساسية لكل مقارن.

وبفضل تكسيت وبيتز استطاع الادب المقارن ان يفرض وجوده كعلم متميز عن النقد والتاريخ الأدبيين.

3- لانسون وبالندسينجر: من المؤكد ان لانسون كان رائدا التجديد الذي حصل في تاريخ الادب الفرنسي الحديث، حيث كتب تاريخ الادب الفرنسي سنة **1894** والموجز الفهرسي للأدب الفرنسي الحديث من **1900** الى **1909** واللذان أثّرا كثيرا في الادب المقارن، وما ان حلّ القرن العشرون حتى حلّت معه اعمال: **فيرنان بالندسيرجر** القيمة بنوعيه التّعليمي، اذ خلق تكسبت في منصبه في جامعة **ليون** والتأليف كنشر فهرسة بيتز في صورة كاملة عام *1904* لكن الشهرة الواسعة اتته من رسالته: "جوته" في فرنسا **1904** التي تتبع فيها مستغلا كل الجرائد والمجلات انطباعات القراء حول اقامته جوته في فرنسا وتأثيره في الادباء الفرنسيين، أما في مقالاته المعنونة دراسات في تاريخ الادب فقط سوى عدّة مسائل تتعلق بالتأثيرات الأجنبية في الادب الفرنسي، ولم يكن عظيما على اعظم مقارن في العالم ان يحتل كرسي الادب المقارن الذي خلق له خصيصا في جامعه السوربون، فجعل منه مركز الدراسات المقارنة النشيط طوال نصف قرن من الزمن، وهي المدة التي استوى فيها على عرش الادب المقارن وتبوّأ رئاسة مدرسة الفرنسية بلا منازع وفي سنه **1921م** انشأ **بالندسيرجر** بمساعدة **بول هازار** مجلة الادب المقارن الفرنسية فنالت شهرة عظيمة وساهمت في اذكاء قوائم المقارنين، ونشر دراساتهم، كما تعاظم شان رسائله الجامعية المتميزة بعمق رؤاه، وفتحت معاهد الادب المقارن في كبرى الجامعات الفرنسية وهكذا حافظت فرنسا على دورها القيادي في دراسات الادب المقارنة حتى فترة ما بين الحربين العالميتين، لكن هذا لا يعني ان الادب المقارن كان مجهولا عند

الامم الأخرى، فقد برز **إسكندر فيزولوفسكي** في روسيا **وكورت وايس** في المانيا...الخ فان اهتمام الامريكيين بالأدب المقارن بدأ مبكرا، وتجلّى في انشاء الاقسام الخاصة به منذ نهاية القرن الماضي في جامعة **كولومبيا 1899** و**هارفارد 1904** ومع مطلع القرن العشرين تألق النجم المقارن **اروين بابت** الذي سيطر على الدراسات المقارنة الأمريكية، وترك مصنفات كثيرة، منها: **أرباب النقد الفرنسي 1913م** و **روسو والرومانسية 1919**

المؤتمـــــرات:

إبّان الحرب العالمية الثانية توقفت الدّراسات المقارنة مع صدور آخر مؤلّـــف: **بــول فان تييجم** وهو تاريخ ادب اوروبا وامريكا من النهضة الى يومنا هذا **1941**م لتستأنف من جديد في سياق المؤتمر الرّابع المنعقد بباريس سنة **1948** تحت اللّجنة العالمية لتاريخ الأدب، ثم تلته مؤتمرات ثلاثية الحول عولجت فيها مشكلات الادب العظمى، مثل: المناهج النقدية والأسلوبية، وخلافات الادب المقارن بأشكال التعبيرية الأخرى.

وفي كواليس مؤتمر اوكسفورد سنة **1954** اتفق المقارنون على ضرورة فصل الادب المقارن، واعطائه المكانة العالمية التّي يستحقها، فعقد اول مؤتمر عام **1955** لتكريس نشأة الجمعية العالمية للأدب المقارن المستقلة ومنذ ذلك الحين تواترت مؤتمراتها الى أن احتضنت مدينه نيويورك آخر مؤتمر لها سنه **1982م**، كما أنشأت في توازٍ مع الجمعية العالمية للأدب المقارن جمعيات محلية في الكثير من الاقطار ومراكز البحث في كبرى الجامعات لتطوير الدراسات المقارنة، وجعلها قادرة على مواكبة النهضة العلمية.

وليست فرنسا هي البلد الوحيد الذي يرعى الادب المقارن حاليا، بل إنّ الكثير من الدول النامية، وفي مقدمتها الجزائر توجّه اهتماما متزايدا اليه إمّا عن طريق إدماجه في المواد الأساسية للمنظومة الجامعية، واما عن طريق ايفاد المبعوثين الى اوروبا للتخصص فيه.

وإذا كان الادب المقارن قد خطى بفضل مساهمة الجميع خطوات عملاقة منذ بداية القرن العشرين، فإنّ المقارنين هم أحوج النّاس اليوم الى عقد المؤتمرات العالمية، مثل: ملتقى عنابة حول الادب المقارن عند العرب **1983**م، والاكثار من اللّقاءات لتبادل الأفكار، والعمل على توسيع دائرة المهتمين بالأدب المقارن حتى لا يبقى حبيس الحدود الوطنية الضيقة واسيرا للبحث الأكاديمي.

عدّة الباحث المقارن وميادين بحثه:

عدّة الباحث المقارن: ليس لأي كان القدرة على الاضطلاع (القيام) بمهمة مراقبة التبادلات العالمية للآداب دون التسلح بثقافة واسعة ومنهجية محكمة تؤهلانه للخوض في تأريخ الصّلات الأدبية وتتبع ما قد يمر عبر الحدود اللغوية من اجناس ومواضيع وافكار ومشاعر لصالح هذا الادب او ذاك، ومن هنا كان لابد للمقارن من عدّة كما سمّاها **بول فان تييجم** تساعده على القيام بعمله في احسن الظروف، والعدّة معناها: استيفاء الباحث الشروط التالية:

1- ان يكون عالما بطرق البحث، وان يختار لنفسه اتجاها معينا وطريقة ملائمة تعتمد على الاستقصاء في البحث والتحلي بالأناة وطرح الفرضيات وتدعيم استنتاجاته بالحجج، ونبذ الاحكام المسبقة، ... وما الى ذلك من صفات أو شروط الباحث.

2- أن يتمتع بصفته مؤرّخا للآداب بثقافة موسوعية مكينة تتيح له إحلال النّتاج الأدبي المدروس محلّه من الحوادث التاريخية التي تؤثر في توجيهه.

3- أن يعرف عدد كبير من اللغات معرفة تسهّل عليه مهمة المقارنة فالاعتماد على الترجمة كثيرا ما يذهب بطعم النّص المترجم، لاسيما الشّعري منه لكونها غير أمينة في أغلب الأحيان.

4- أن يكون على إلمام كافٍ بأكثر عدد ممكن من الآداب الأجنبية، إمّا في كل عصورها، وهو المسمن، وإمّا في العصر المختار موضوعا لدراسته، على الاقل ليتسنّى له تحديد نوعية العلائق التي تقوم بين أدبين على الأقلّ، وإذا كانت معرفة اللغات ضرورية ومفتاح للمقارنة، فإن معرفة الآداب لازمة وجوبا.

5- أن يكون ملمّا بالمصادر العامة التي تساعده على الوقوف على كل ما كتب ماضيا وحاضرا في الموضوع الذي يريد معالجته.

- ولتيسير لباحث في الأدب المقارن أعدّ كبار المقارنين الفرنسيين مصنفات مفهرسة لا غنى عنها، أهمها معهد فهرسة بيتز (1904 أضخم فهرسة في أ.قم) فهرسة الأدب المقارن لبالدن سيرجر، و فريديريش، وبها 33,000 مرجع، والفهرس التاريخي للآداب الحديثة سنه 1937 الذي اشرف على إنجازه بول فان تييجم، وهو فهرسة مصنفة تصنيفا سنويا لكل ما ألّف في أوروبا منذ اختراع الطباعة حتى نهاية القرن 19م، والى جانب الانتفاع بتلك الفهارس او العمليات البيبليوغرافية هناك مجلات ودوريات تصدر عن جمعيات الادب المقارن وتقدم للقارئ كل جديد من ابحاث ودراسات مقارنة في أوروبا وامريكا.

خاتمـــــة:

وغير ذلك هو حال المقارن العربي الذي لا يملك بين يديه سوى نتف قليل من المراجع، قد لا تغني ولا تسمن من جوع، هذا هو مجمل ما يمكن قوله عن عدة المقارن الذي يستعين بها في بحثه المترامي الأطراف، واذا كان شاقا على باحث واحد الإحاطة بميدان المقارنة الواسعة، فما عليه الا الاختصاص في موضوع محدّد الزّمان والمكان.